

باب المقالات

﴿ الحق والباطل والقوة ﴾

٣٤ : ٤٩ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ١٧ : ٨١ وَقُلْ
جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * ٢١ : ١٨ بَلْ نُهِنِفُ
بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ *

مضت السنن في المغلوبين على أمرهم ، المقهورين في أرضهم ، أن يعتدروا عن
أنفسهم ، يدعوى أن القوة هي التي غلبتهم على حقهم ، وأنهم غير مذنبين
ولا مقصرين ، ولا مسرفين ولا مضيعين ، وجرت عادة الغالبين على أمرهم ،
والقاهرين في حكمهم ، أن يحتجوا لأنفسهم بأنهم أصحاب الحق الذي يعلمو ولا
يعلى ، وأن الحق هو الذي جعل كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم السفلى ، . وقد يصور
الأمّة الواحدة القوة والضعف والعز والذل فتدعي في طور قوتها وعزها أنها
اعتزت بالحق وغلبت ، وفي طور الضعف والذل أنها أخذت بالقوة فقهرت ، وأنها
حليفة الحق في الطورين ، لم تعد حدوده في حال من الحالين ، وتلك سنة الله
تعالى في الأفراد أيضاً يدعي الرجل الحق لنفسه ما ظفر ، ويعتذر عنها بالقوة إذا هو غلب
وقهر ، وهذا الفرور من الانسان قد أضله عن طريق الحق حتى لا يكاد يفهم معنى
كلمة (الحق) ومدلولها الصحيح . وما نقل الينا قول عن غالب يمتاز فيه بالقوة على
الحق ، الاتك الكلمة المأثورة عن بسمرك « القوة تغلب الحق » وقد أرسلها
مثلا ، وهي لاتصح الا تأويلا وجدلا ، ولو غلب الحق لما كان حقا . والحق أن
الحق قد يخفى ، وقد يترك وينسى ، ولكن ما صارع الباطل الاصرعه ، ولا قارعه
الا وقرعه ، « وأما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه » ، والقوة انما تظفر اذا كانت
شعبة منه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

الحق عبارة عن الشيء أو الأمر الثابت المتحقق في الواقع والباطل هو ما لا
ثبوت أو لا تحقق له في نفسه وما لا ثبوت له ولا تحقق لا يحق ما كان ثابتا محققا

كأهو الشأن في الموجود والمعدوم والمعلوم والموهوم ، وهذا مما لا مجال فيه لاختلاف العقلاء . إن يختلفون إلا في الحقوق العرفية والوضعية ، والدينية والشرعية ، وما تحكم فيه الشرائع من الأمور الاجتماعية ، وفي كل ذلك حق وباطل لا يتنازعان إلا ويكون الحق هو الغالب والباطل هو المغلوب وانما نبين ذلك ونذكر مواضع غلط الناس فيه ومناشئ شبهاتهم فنقول ان الحق والباطل يتنازعان في خمسة أمور كلية وهي (١) الفلسفة والنظريات العقلية، الوجود والسنن الكونية (٢) السنن الاجتماعية (٣) القوانين والمواضع العرفية (٤) الدين والشريعة الالهية

الفلسفة والنظريات العقلية

اختلف الناس في الفلسفة والمسائل النظرية في القديم والحديث ومنهم المحق والمبطل فيقول من يظن ان الباطل يغلب الحق ان كثيرا من الآراء الباطلة في ذلك كانت رائجة لا ينازع فيها أحد وكثير منها كان موضوع النزاع وكان أكثر الباحثين فيه على الباطل ، ولا يزال يظهر للعلماء في كل زمن وكل جيل خطأ كثيرين من السابقين والمعاصرين فيظهر بذلك ان الباطل كان هو الغالب فان كنت تقول لا عبرة الا بغلب دائم ، فانك لا تقدر ان تثبت الدوام لحق ولا لباطل ، فيكفي في اثبات قوة الباطل وظهوره على الحق ان يظهر عليه زمنا طويلا : ودفع هذا الظن سهل وان كنا نترف بأن الحق والباطل في الآراء النظرية والغلبانية من أخفى الأمور وأوغلها في الأبهام . ذلك أن التنازع بين الحق والباطل لا يتحقق هنا ما دام كل من المتناظرين في المسألة يجادل بالنظريات ولم ينته بدلائله الى إحدى اليقينيات التي لا تنازع فيها . ويان ذلك أن المسألة مادامت نظرية من الجانبين فالتنازع إنما يكون بين الدليلين لا بين المدلولين والحق في الدليل هو إفادة اليقين فما دام نظريا فهو غير حق وإنما هو موقوف أو باطل يعارض مثله فإذا انتهى أحد المتناظرين الى اليقين البدهي في المسألة فهو صاحب الحق وهو الغالب سواء أذعن له مناظره أو كابره . وما كان الغلب والسلطان لتلك المسائل النظرية الباطلة في الفلسفة العليا وغير العليا ذلك الزمن الطويل إلا لأن الحق فيها كان خفيا أو غير معروف لأهلها . بل نقول ان في طرق الاستدلال نفسها حقا وباطلا فالحق هو ما وافق شروط القياس

المنطقي وأعني بكونه حقا ان النفس فطرت على الانتقال من المقدمات المرتبة على ذلك النحو من الترتيب المعروف في أشكال القياس إلى المطالب التي هي النتائج فإذا كانت المقدمات مسلحة فلا مندوحة للنفس عن التسليم بالنتيجة . وقد يكون صاحب الدعوى الحق غير قادر على نظم الدليل الحق مع كون الدعوى نفسها غير بديهية فإذا غلبه مناظره المبطل في الدعوى حينئذ فلا بد ان يكون أقرب منه إلى الحق من طريق الاستدلال وأن يكون قد أقنعه ببعض المقدمات الباطلة وفي هذه الحال يكون مبطلا ومن ناحية الباطل قد أخذ - وهو ماسله من المقدمات - لامن ناحية الحق وهو أصل الدعوى التي نطق بها على غير بينة وبغير بينة . ولو شئت لجمت في هذا الاصل بالأ مثله والشواهد التي تجليه أكمل التجلي ولكن القصد بهذا المقال إلى غيره مما نرى الناس مصرين على الخطأ فيه وفي خطاهم الضلال البعيد والخسران العظيم

الوجود وسنن الكون

كل وجود حق والعدم باطل لا حقيقة له، وكل نظام في الطبيعة والخلقة فهو حق والخلل فيها باطل لا يحقق له، والخلل الصوري الذي يعبر عنه علماء الكون بفلات الطبيعة له سنن خفية أي نواميس لم يطلعوا عليها وهم يتوقعون اكتشافها ويرجونه ٣:٦٧ « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ٧:٣٢ « الذي أحسن كل شيء خلقه » ولا تنازع بين الوجود والعدم ولا بين النظام والخلل وإنما يقع التنازع بين الناس في فهم ذلك والعلم به فمن كان أعلم بالوجود والنظام كان أعلم بالحق وأقرب إلى الحق وكانت له الغلبة بالحق . وهذا ظاهر في نفسه وسيادة العالمين بمحقق الوجود وسنن الله في الكائنات على الجاهلين بها مشاهدة لا ينكرها المسودون المغلوبون بمجهلهم وباطلهم وان كانوا يجهلون ان علم من سادوهم هو الحق وأنه سبب لسيادتهم، وانهم هم بمجهلهم على باطل وبه كانوا مغلوبين على أمرهم، ومقهورين في أرضهم وديارهم، وان منهم المسلمين الذين يقول كتابهم ١٠: ٥ « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات ليعلمون » ويقول ٤٥: ٢٢ « وخلق الله

السماوات والأرض بالحق وتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون» وفي معانيها آيات ولا ترى شعبا إسلاميا يعتقد بان سعة العلم بالسماوات والأرض من الحق الذي تميز به الأمم، وان جهت الأمة وهلكت، فقد جزيت بما كسبت، وظلمت نفسها وما ظلمت،

السنن الاجتماعية

للكون سنن في تكوّن الأجر الكريمة وغير الكريمة كالصخور وفي نموّ النبات وحياة الحيوان وفي اجتماع الاجسام وافتراقها وتحللها وتركبها وهي ما عيناها بالاصل الثاني . وللشعر سنن خاصة بهم في حياتهم الاجتماعية عليها يسرون وفيها يتقلبون قوتهم وضعفهم وغناهم وفقيرهم وعزهم وذلمهم وسيادتهم وعبوديتهم وحياتهم وموتهم كل ذلك غاية لا تباع سنن الله في السير على أحد الطريقين المتار اليهما بقوله تعالى في الانسان ٩٠ : ٩٠ «وهديناه النجدين» فهذه السنن حق وتنكها خروج عنه الى الباطل . وما زال العارفون بسنن الله تعالى في الامم ، هم الآخذين باطراف السعادة من أمم ، ينتصرون على الجاهلين بها من المبطلين من حيث هم مبطلون وهو ما به الاختلاف وان كان الغالب القاهر مبطلا في شيء آخر والمقلوب محق في مخالفته له فيه

لم يعرف كتاب قبل القرآن نطق بأن للأمم في قوتها وضعفها وحياتها وموتها سننا ثابتة لا تبدل ولا تتحول كقوله في سورة الانفال ٨ : ٣٨ «قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يمودوا فقد مضت سنة الاولين» أي فانه يحل بهم ما حل بمن قبلهم ممن عاند الحق وقاومه . وقوله في سياق الكلام على الانبياء واحوال الامم في سورة الحجر ١٤ : ١٣ «وقد خلت سنة الاولين» وقوله في سياق الكلام في بئال المال والحرب ٣ : ١٣٨ «قد خلت من قبلك سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وفي الآية الثالثة بهذه الآية «ان يمسك قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس» الآيات فهذه الآيات البينات حق وما ترشد اليه من سنن الاجتماع حق فالجهل بسنن الاجتماع باطل وترك الاعتبار بها في شؤون الامم باطل فهل وجدت أمة

على سطوح هذه الأرض عرفت هذه السنن وسارت عليها ثم قاومتها أمة أخرى تجهلها أولاً تعتبر ولا تهتدي بما عساها تعرف منها ثم كانت الجاهلة الضالة هي الغالبة فيقال ان الباطل قد يغلب الحق ؟ كلا ما كان ذلك ولن يكون . ومن العجائب والمعائب جمة ان يكون المسلمون في هذا العصر أجهل الامم كلها بسنن الله تعالى في البشر حتى أن من يدعوهم الى تعلمها وتعلم مصادرها وهي توارىخ الامم بعده رجال الدين منهم جانبا على الدين صادًا عنه لاسيما اذا كانت دعوته موجهة الى طلاب علوم الدين في مثل مدرسة الأزهر !! فأين هذا الدين الذي يعد المرغان بسنن الاجتماع صدًا عنه وجناية عليه من القرآن الذي هو أول كتاب ارشد الى هذه السنن ؟ واذا غلبت كل أمة مهتدية بهذه السنن في كسبها وعملها وسياستها وحروبها على الأمة الجاهلة بها الضالة عنها وسادت عليها فهل يصح ان يقال ان الباطل قد غلب الحق لان دين المسلمين هو الحق وأديان الغالبيين عليهم هي الباطلة ؟ كلا ان كل مغلوب فهو بسبب الباطل قد غلب وكل غالب فهو بسنن الحق قد غلب . أينصرون ويسودون ، وهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وحكامهم يظلمون ولا يعدلون ، والله تعالى يقول في بيان سننه الحق ، ١١٦: ١١ « فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما ترفوا فيه وكانوا مجرمين » ١١٧ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ففسروا الظلم ههنا بالشرك والمعنى ان الله تعالى لا يهلك الامم بسبب الشرك اذا كانت مصلحة في الأعمال ولكن يهلك المفسدين الذين لا ينهون عن الفساد لاسيما اذا كان منبعه امرؤهم وملوكهم . أو المعنى ما كان ليهلكها بظلم منسه لانه منزه عن الظلم وهي لا تستحق الاهلاك لأنها مصلحة في العدل والعمران

القوانين والمواضعات العرفية

لكل أمة من أمم الحضارة قوانين تسوس بها بلادها ولكل قبيلة من القبائل البدوية عرف ومواضعات ترجع اليها في شؤونها الاجتماعية . والدول قوانين في الحقوق العامة والمصالح الخاصة . فهذه القوانين والمواضعات حقوق

عرفية فالأخذ بشيء من هذه الحقوق يكون هو الغالب لتاركها مادامت الأمة والدولة أو الدول التي جعلت القانون حقاً في عرفها حاقة له فإذا رجعت الأمة عن عرفها أو الدولة عن قانونها في بلادها أو الدول عن بعض القوانين العامة لم يفسد ذلك حقاً لأن حقيقته لم تكن لذاته وإنما كانت للعرف الذي يكفله أهله الواضمون له وقد زال

مثال ذلك اعتداء دول أوروبا على الممالك المشرقية واقبياتها على حكومات هذه الممالك تركيا فما دونها وقد علم من القوانين العامة أنه ليس لدولة أن تفتت على أخرى في إدارتها الداخلية ولكن أوروبا تفتت وتغلب فهنا يظن الجاهل بالفصل بين الحق والباطل أن الباطل قد غلب الحق بالقوة ووجه الخطأ في هذا الظن أن هذا الحق الذي ندعي أن أوروبا سلبته من تركيا مصرأوكريت مثلاً ما أن يكون حقاً طبيعياً يملك ويحفظ بمقتضى سنن الله في الاجتماع البشري أو حقاً عرفياً يملك ويحفظ بمقتضى القوانين العامة التي تعترف بها الدول وتكفلها فإن ادعى المدعي الشق الأول فإننا نتمنع دعواه ونقول إن سنن الاجتماع لا تتبدل ولا تتحول كما نطق الكتاب العزيز ودلت التجربة والمشاهدة لأن واضعها وحافظها هو العزيز الحكيم وهي تسيطر الغلبة ودوام السيادة بالعدل والعلم بالسنن والأصلاح في الأرض والمنعة والتقوى والاستعداد للحماية بالقوة وأعظم القوة فيها قوة الأمة المستتاة العارفة بحقوقها ثم القوة الآلية وذلك غير متحقق في تركيا كأوروبا فلاحق طبيعي هناك . وأما الحق العرفي فقد قلنا أنه ليس حقاً ذاتياً وإنما هو حق ما كفله واضعوه المعترفون به وقد اتفقت الدول الكافلة للقوانين العامة على أن لا تعامل دول المشرق بما تعامل هي به وأن تفتت عليها بحكمة حتى لا يفضي الافتتات إلى الحروب ، التي ينحسر فيها الغالب والمظلوم ، فتمين بهذا أن الباطل لم يغلب الحق في هذه المسألة بل الحق هو الغالب كما أخبر الله تعالى . وذلك أن دول أوروبا الغالبة عارفة بسنن الكون وسنن الاجتماع ومهتدية بها وهي الحق وبها الغلب والسלטان ، كما تقدم البيان مؤيداً بالقرآن ، فإن قيل إن أوروبا تظلم في البلاد التي تفتت فيها: قلنا نعم ولكن ظلماً دون ظلم حكام البلاد المفتتات عليهم فباطلها أقل وعدلها أكثر فحقها أكبر

وهكذا غلب الحق الباطل ولكن أكثر الناس لا يعلمون
ومن هذا القبيل غلب ألمانيا وانتصارها على فرنسا فان سببه العلم بسنن الكون
وسنن الاجتماع والعمل به ولذلك قال بسمرك : غلبنا بالمدرسة : وقوله هذا حق
وأما قوله : القوة تغلب الحق : فقد لبس فيه الحق بالباطل فالقوة الباطلة لا تغلب
الحق ولكن القوة الطبيعية الاجتماعية تغلب الحق العرفي وحينئذ يكون الحق قد غلب
حقاً أضعف منه في الظاهر بل هو لم يغلب الا الباطل

يقول الظالمون في الحق غير الحق ان القضاة بظلمهم ووكلاء الدعاوي يحيلهم
وختلمهم كثيراً ما يؤيدون المبطل في دعواه حتى يكون له الفلج والظفر : ونقول ان
هذا القول صحيح ولكنه لا يفيد المطلوب فان تأييد الباطل اذا كان من الحكام
فلا قانون ولا شريعة وإنما هو الهوى والظلم يتحكمان وهما من الباطل الذي
لا يغلبه الا حق من جنسه وهو السلطة العادلة فاذا تنازعت سلطة عدل مع سلطة ظلم
وغلبت الثانية الأولى تكون المعارضة صحيحة . وأما الدعوى فليست من جنس
السلطة فيقال انه يجب أن يغلب حق الأولى على باطل الثانية . وان كان الحاكم
عادلاً والخصم المبطل أو وكيله المحامي عنه ألحن بحجته وأقدر على البيان من الخصم
الحق أو وكيله فالتغالب اذاً بين الحججة والحجة ولم تنس ما قلناه فيما عند الكلام
في الفلسفة والنظريات العقلية

ان الانسان يظلم والظلم من الباطل حتى قيل ان الظلم طبيعي في البشر ومنه
قولهم : الظلم كمين في النفس القدرة تظهره والمعجز يخفيه : وقال المتنبي
والظلم من شيم النفوس فان تجرد ذا عفة فاملة لا يظلم
وهذا قول بأن الانسان جبل على الباطل وهو على ظهور شبيهته غير صحيح
وإنما الصحيح هو ما قاله الخالق الحكيم ، في السورة الخامسة والتسمين ، وهو

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

والتين والزيتون ٢ وطور سينين ٣ وهذا البلد الامين ٤ لقد خلقنا

الانسان في أحسن تقويم ٥ ثم رددناه أسفل سافلين ٦ الا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات فلهم أجر غير ممنون ٧ فما يكذبك بعد بالدين ٨ أليس الله باحكم
الحاكمين

أكد لنا القول عز وجل بأنه خلق الإنسان في أحسن تقويم اذ أقسم على ذلك بما ذكرنا بعهد الفطرة ومعاهد ظهور الشريعة ذلك أنه خلقه وجعل له من الحواس ما يدرك به ما يحتاج الى ادراكه في حفظ نفسه وتوفير منافعها ودفع المضار عنها ومن العقل ما يميزه بين المدركات الحسية فيعرف صوابها وخطأها وما يحكم به على هذه المشاعر المدركة فيوجهها الى الاشتغال بالانفع والاصلاح فهو مجبول على أن يختار ما هو أنفع وأصلح . ولكنه لما خلق مدنيا مستعدا للكمال الشخصي والنوعي بالعمل التدريجي والتعاون . والعمل لا يكون الا بعلم والعلم لا يكون الا بالكسب كان هذا الإنسان عرضة للجهل بوجوه المصالح والمفاسد والمنافع والمضار سواء كانت للأفراد والأمة والشعوب، والجهل من الباطل وبه ردت الإنسانية بدخوله في طور الحياة الاجتماعية الى أسفل سافلين فكان افراده وجماعته ينجنون على أنفسهم ويظلمونها من حيث يظنون أنهم ينفعمونها ويؤيدون حقوقها ففطرهم تطلب الحق الذي فيه المصلحة والمنفعة وعقولهم تخطيء في تحديده فتقع في الباطل فكانوا محتاجين الى مساعدة الفطرة والعقل يحدد لها الحقوق النافعة ويميزها من الأباطيل الضارة وذلك هو الدين الذي نفثه روح الحق في روع كل واحد من أولئك الشارعين الذين ظهر وافي معاهد منبت التين والزيتون وطور سينين وفي ذلك البلد الأمين (مكة المكرمة) وغيرها فصلح به امر الناس وساد الحق على الباطل ما كانوا يبتدون بتلك الشرائع ايمانا وعملا صالحا كما قال عز وجل . قال الباطل ليس من منزع الإنسان بطبعه ولكنه من العوارض اللازمة له من حيث هو مر يد مختار في علمه وعمله كاسب لهما بالتدريج . ولذلك أجمع الحكماء في هذا العصر على سنة من سنن الاجتماع التي جاء بها القرآن في شأن الحق والباطل وهي ما يعبرون عنه بالانتخاب الطبيعي وقد بينها الله تعالى بقوله ٢: ٢٥٠ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض « وقوله ٧١: ٣٩ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد النج وقوله ١٣: ١٧ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل

السيل زبدا رايا واما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال * » وبالأيات التي افتحنا بها هذا المقال . وبمثل قوله ٤٩: ١١ ان العاقبة للمتقين « وقوله في السحر الذي هو باطل لاحقيقة له ٨١: ١٠ ان الله لا يصلح عمل المفسدين * ٨٢ ويحق الحق بكلماته » وقوله بعد ارشاد الأمم منه النهي عن الفساد في الأرض بعد اصلاحها ٧ : ٨٦ وانظروا كيف كانت عاقبة المفسدين * وقوله بعد بيان أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار * فاتفق الحكماء على مضمون هذه الآيات وأمثالها في هذا المعنى هو اعتراف بأن للحق الغلبة والسلطان على الباطل اذاهما وجدوا وتنازعا وعلى أن الانسان مفطور على تغليب الحق على الباطل لولا ما يمرض له من الخطأ في التمييز بينهما وانما يسود الباطل في غيبة الحق أو غفلة عنه

ذكرت لصديق لي هذا البحث قبل أن أتم هذا المقال فأخبرني أنه يحفظ عن الحكيم السيد جمال الدين الافغاني تمثيلا في مصارعة الحق للباطل معناه أن الحق كان يصرع الباطل ويصفه فرأى الباطل ان لا طاقة له به فاستشار أعوانه فأجمعوا أمرهم وهم يمكرون على أن يكبدوا للحق كيدا فجاءوه باقون اليه السلم ويدعونه الى مأدبة أعدوها له فلما حضر أجلسوه على بساط جميل تحته حفرة عميقة فوقع في الحفرة فظفقا يهلون عليه التراب حتى دفنوه ثم جلسوا فوق الحفرة لئلا يخرج منها فيطش بصديقهم الباطل فكان ينتفض بقوة العظيمة يحاول الخروج وهم يتحاملون بأثقالهم عليها خوفا منه والباطل يسرح ويمرح آمنا من رؤية الحق له لأن أولياءه حالوا بينها ولكن الحق ما عسى أن انتفض انتفاضة نفس بها أوائلك المتشاكين وخرج الى الباطل فأوقع به ودفنه وأراح الناس من شره .

وحاصل التمثيل ان الباطل انما يسود ويثبت حيث لا يوجد من يقوم بالحق ويقاومه به وأن ذلك لا يدوم . فكل دولة أو حكومة ظالمة تخالف قوانين العدالة في الأرض وتهضم حقوق الرعية فهي انما تسود بباطلها ما دامت الرعية دافئة للحق

دائسته فيكون باطل الحكومة غالبا لباطل الرعية حتى اذا ما انتشر الظلم ونفسي
وذاق آلامه الجماهير فاستصرخوا الحق واستغاثوا به لباهم مسرعا وصال على باطل
الحكومة الظالمة فجنده وربما جندها معه فاذا استماتت الرعية وأنست بالظلم فان سنة
الكون تسلط على الحكومة الظالمة حكومة اجنبية عادلة أو ظالمة تفكك بها وتقلص ظلها
ثم يكون بقاء الحكومة الثانية على سنة الله في الحكومة الاولى ٣٥ : ٤٣ فهل ينظرون
إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا *

الدين والشريعة الالهية

ما قلناه نفا يثبت أن الدين في جملة حاجه طبيعية للبشر وان كانت أحكامه
التفصيلية مما يجري فيه اختيارهم فهم يحكمون فيها تقوهم وأفكارهم ويتبعون
فيها قاعدة الأصلاح والانفع لهم . فالحق والباطل مجريان في الدين من وجهين
(أحدهما) كون عقائده صحيحة معقولة في نفسها وأحكامه في العبادات والآداب
موافقة للفطرة في تقويم الملكات وتهذيب الاخلاق وتوثيق الروابط وشد الاواخي
بين الناس وأحكامه في القضاء والسياسة والادارة موافقة لسنة الاجتماع وقواعد
العدل ، أو كونها ليست كذلك (وثانيهما) كون عقائده راسخة في عقول الأمة
مؤثرة في قلوبها ، وآدابها حاكمة في شعورها ووجدانها ، وأحكامه محترمة عند
أمرائها وجمهورها ، أو كونها ليست كذلك . فالدين سنة من سنن الاجتماع
الكبرى وهو حق في الواقع أو باطل مؤيد بحق اجتماعي هو وحدة الأمة في الاعتقاد
والعمل ولاهله القلب والسلطان على من ينازعهم فيه ويحاول ابطاله أو ارجاعهم
عنه من المعطلين لانه إما أن يجمع نوعي القوة في سنن الاجتماع وفي السوانين
والمواضع المعرفية التي تسنها الامم لانفسها وتعتقد أن فيه خيرها وحفظ حقوقها
كما تقدم وإما ان ينفرد بالثانية . وما اجتمع فيه الحقان يسود على ما تنفق له
أحدهما فقط كما ساد الاسلام في أول نشأته على سائر الاديان لانه حق من كل وجه
والامة متحدة فيه . والتاريخ يؤيد ما نطق به الكتاب في ذلك بقوله ٤ : ١٤١
ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا * وقوله ٣٠ : ٤٧ وكان حقا علينا
نصر المؤمنين * ولكن هذا النصر خاص بالمؤمنين حقيقة لا ادعاء أو جنسية كما

قال في آية أخرى ٧:٤٧ يا أيها الذين آمنوا ان تصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * ٨ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم * وقال عز وجل ٥٥:٢٤ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم - الى قوله - ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * وقد فسروا الكفر هنا بكفر النعمة كالظلم والبغي والافساد في الارض

ونقول ان عمل الصالحات الذي قيد الوعد بالنصر يشتمل مثل قوله تعالى في وصف المؤمنين من سورة الشورى ٢٨:٤٢ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * ٣٩ والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون * ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين * ٤١ ولئن انصرت بعد ظلمه فألئك ما عليهم من سبيل * ٤٢ انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ٤٣ ولئن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور * ومثل قوله ١٣٥:٤ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً * وقوله ٥ : ٨ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون * فهو يأمرهم بالقيام بالقسط دائماً وهو العدل والشهادة لله بلا محاباة قريب ولا غنى ولا رحمة فقير مبطل ويأمرهم ان لا يحملنهم شنآن قوم أي عداوتهم على ترك العدل فيهم بل يحتم عليهم العدل حتى مع الذين يعادونهم

وقد أخبر تعالى في آيات كثيرة بأنه انما ينصر رسله وعباده المؤمنين الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون على الظالمين كقوله ١٣:١٤ فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ١٤٣ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (ي) * والآيات في هذا المعنى وهو نصر المصلحين في الأرض واهلاك الظالمين والمفسدين كثيرة جدا

لا يوجد في مقابل هذه الآيات آية واحدة تدل على أن الله ينصر الذين ينتسبون إلى الإسلام وإن لم يقوموا بالقسط والاصلاح وينهوا عن الظلم والفساد فهل يجيز هذا الكتاب الحكيم لمدعي الانتماء إليه بالقول دون العمل إذا رأى استيلاء الأوربيين على بلاد المسلمين والافقيات على حكاهم في سائر بلادهم التي لم يتم لهم الاستيلاء عليها أن يقول ان هؤلاء الأوربيين منهم الملحد ومنهم من يقول بالتثليث فكيف سادوا بقوتهم على المسلمين ، وأهل التوحيد وهو حق اليقين ، ؟ كلاته لا يجيز لهم هذا القول بعد ما بين لهم أنه لا يهلك الأمم بالشرك إذا كانوا مصلحين في الأرض بالعدل وسائرين على سنن الله في العمران ولكنه يهلك الأمم الظالمة ما كان اعتقادها كما علمت من الآيات التي أوردناها آتفا ومثلها كثير . وأعظم عبرة للمسلم انكسار الضحابة مع داعي الحق الأعظم (ص) في وقعة أحد لما خالفوا سنن الأجماع في الحرب فخالفوا العقائد وتركوا حماية ظهر الجيش وفيها نزل ١٦٥:٣ أولا أصابكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلم أنسى هذا قل هو من عند أنفسكم» فكل من خالف سنن الله الحق يغب على أمره بحق حتى يزج وما أسرع رجوع المؤمن إلى الحق إذا زل عنه

لهذا أقول ان الوصول إلى حق اليقين في التوحيد ينافي الأصرار على الظلم ، والتماهي في الفساد والبقي ، كما نطق القرآن وشهد العقل ، فلم يجعل الإسلام الأعمال الصالحة بعد ترك المفاسد سبيجا للإيمان وعنوانا له ودليلا عليه وشرطا لاجتناء ثمراته في الدنيا والآخرة لكان العقل وحده كافيا في الدلالة على أن الموقن بعقله المذعن بقلبه لعقيدة التوحيد الخالص لا يؤثر هواء ولا هوى الرؤساء والحكام على رضوان هذا الآله العظيم الحكيم القوي العزيز وإنما رضوانه بالناس فضله من سننه في خلقه ، والوقوف عند ما حدده من الشكر والعدل في شرعه ، فهو يمضي في تعرف السنن والأحكام والعمل بها لا يخاف في ذلك وثبات الظالمين لقوله عز وجل ١٧٥: ٣ فلا تخافوهم وتخافون ان كنتم مؤمنين * وقوله بعد ذكر سننه في الأيام يداولها بين الناس ٩٠: ٣ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين * فهل تنطبق هذه الآيات على قوم يخافون الظالم ان ينهوه عن ظلمه ، ولا يخافون

الله تعالى ان يخرجوا عن حكمه ، وقد جعلوا دينه جنسية ، لاهداية حقيقية ، فهم يرجون سعادة الدنيا والآخرة بالانتساب اليه ، أو بالتوسل والدعاء لاشخاص ماتوا عليه ، وهم مختلفون متفرقون ، متنازعون متواكلون ، جاهلون متكاسلون ، لا يبذلون ولا يتعاونون ، ولا ينظرون ولا يفكرون ١٢٠ : ١٠٥ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون * ٤٩ : ١٥ اتما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون *

هو لاء الصادقون هم الموعودون بنصر الله وتأيدده « ولن يخلف الله وعده » فلو صدق المسلمون اليوم ما عاهدوا الله عليه باتخاذ الاسلام ديننا من العمل بكتابه والاهتداء بسنته في خلقه لما غلبهم أحد على أمرهم فلقد صدقهم وعده بصدقهم فيما سلف حتى اذا ما فشلوا وتنازعوا في الأمر وعصوه من بعد ما أرى سلفهم ما يحبون أخذهم بمسئله وسلط عليهم من هم أقرب الى الأخذ بسنته منهم كما توعدهم بقوله ٦٧ : ٤ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين * (راجع بحث الاختلاف والتنازع في باب التفسير من هذا الجزء)

طال المقال والبحث يطلب زيادة بيان لا يمكن الا تيان عليه الا في مؤلف خاص به لأن المسألة من أبكار المسائل التي لم يفرعها أحد من الكتاب فيما نعلم والشبهات فيها كثيرة وانما اهتمدنا فيها بهداية القرآن وآياته وخلاصة ما أقول في شأن المسلمين مع غيرهم في هذه الأزمنة أن من يستخرج من القرآن الآيات الناطقة بسنن الله تعالى في أهل السيادة والعزة من صفاتهم وأعمالهم ، والآيات المبينة لسنته في الأمم المسنحة للإهلاك والاذلال ، ويمرض كل ذلك على الأمم الغالبة السائدة والأم المغلوبة المقهورة يتجلى له صدق قوله تعالى في سيادة الحق وغلبيته وأزهاقه للباطل في كل أمة . وهذا النوع من أنواع علوم القرآن ينهض وحده حجة على ان ذلك النبي الأمي الذي بعث في تلك الجاهلية العمياء كان ينطق بوحي من الله ولم يعلمه بشر بل خفيت هذه المعارف العالية عن أفهام أكثر البشر حتى بعد مجيء القرآن بها وانما يظهر صدقها آنا بعد ان بروية آياته تعالى في الآفاق وفي ترقى البشر

في أنفسهم كما قال ٤١: ٥٣ ستر بهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»
 فعلى المسلمين ان يعلموا انهم أخذوا بذنوبهم، لا بقوة غلبتهم على حقهم، ٤٢: ٣٠ وما
 أصابكم من مصيبة فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» وان معظم هذه الذنوب على عواتق رؤسائهم
 وكبرائهم، فلا يعذرون باستبدادهم واستعلائهم، وعلى العقلاء، وأهل البصيرة منهم - وهم
 محل الرجاء في كل أمة استعدت للحياة - أن يعلموا أن ليس لهم امام يدعو اليه، ويجمعون
 الكلمة عليه، الا هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، فعليه ان
 يجتمعوا لهذه الدعوة وان يتناصروا في سبيلها وأن لا ينتظروا نصر الحق من المبطلين، ولا
 يتوانوا فيها خوفا من الظالمين، فان هذا الامر اذا خرج من أيديهم، يوشك أن لا يعود
 اليهم، ان الاسلام لا ينصر في الدنيا بالاماني والاحلام، ولا ينجم في الآخرة بالخزافات
 والأوهام، ان أهل الحق لا يُظلمون، ان الظالمين لا يسودون، ٤٠: ٧٨ فاذا جاء
 أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون * ٤٦: ٣٥ كأنهم يوم يرون ما يوعدون
 لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون * ٦: ٤٧
 قل ان آتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون * وهذه نذره
 تعالى القوم لا يعدلون، بل هم بربهم يعدلون، فبادروا أيها المؤمنون الصادقون،
 ٧: ٢١ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون * ولا تغترّوا بدينكم الذي اليه
 تنسبون، ولكنكم به لا تعملون، فلقد أنزل الذكر على من قبلكم فسادوا وهم عاملون، ١٩
 : ٤٤ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أتوا
 أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ٥٥ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين *
 وقد أنذركم ما حل بهم لعلكم تعبدون، ٢١: ١٠ لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه
 ذكركم أفلا تعقلون * ١١ وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بها قوما
 آخرين * ١٢ فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون * ١٣ لا تركضوا وارجعوا الى
 ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تستلثون * ٤١ قالوا يا ويلنا اننا كنا ظالمين * ٥١ فما
 زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين * ١٦ وما خلقنا السموات والارض
 وما بينهما الا عين * ١٧ لو أردنا ان نتخذ لهموا لاتخذناهم من الدنا ان كنا فاعلين *
 ١٨ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون *